ايقونة من الخزف الفلسطيني

ياسين طه حافظ

وَسَطَ القاعة ايقونةٌ:

خزف موغِلٌ في الزمانِ وروحٌ به بقيتْ
بعدما سكَنَتْ و «توقّف ذاك الحفيفُ
الحريريّ في ثوبها ..»،
بعدما هدأتْ ذكرياتُ القرونْ
واستقرّتْ رياحُ التلالِ وأزهارُها،
واستقرّ على بابها العاشقونْ.

خزَفٌ ساطعٌ نقتنيهْ
لنلوذَ بذاك الجمال الذي لا يشيخْ
وليكون الصِبا المتلامعُ قِبْلَتَنا آخرَ
الليلِ، وردتَنا في النهارْ.
ليكون الملاذَ الأخيرْ
حينما تنصبُ القافله
خيمةً، وتنوّمُ أتعابَها عند باب المزارْ.

خَزَفٌ ساطعٌ بنياشين أزمنةٍ سلَفَتْ
وصلَ العصرَ مبتهجاً
بسلامتِهِ
وسلامةِ أسرارِهِ؛
إن نظرْنا إليهِ، تلامَعَ حتى يُضيّعَ أبصارَنا
وتظل الوجوهُ إليهِ، فَلَذّتُنا
أنّنا بين لَمعٍ ولَمعٍ نرى
صورةً للزمان المُضَيَّعِ، نلمحُ سرّاً
نكادُ نُلِمُّ بهِ،
ثم يفلتُ مبتعدا.

قلتُ أدنو لها
أتسمَّعُ همسَ هياكلَ غائبةٍ وقبابْ
وعذوبةَ صوتٍ بعيدٍ لفاتنةٍ مَا تزالُ،
وقد وَهَنَ العمرُ، ألمحُ أضواءها
وتخاطبُني من وراء حجابْ.

قلتُ أدنو، وأسندْتُ كِتْفي إلى حائطٍ
عجباً من سماسرة الخزَف الصاخبينْ،
لا طريقَ إليها
قد ازدحموا حولها تتلامع أحداقُهُم، يومئونَ
لجوهرةٍ في مكانٍ،
وأنطِقَةُ الفضّةِ حول البطونْ.

وحدها الآن مأسورةٌ في ضباب الزمانْ
أتأمّلُ سحنتَها الشاحبه
يتراعش فوق العيون ندى
وهي ترقبُ ظلاً عزيزاً يغيب بأقصى المدى.

فجأة سطعَ البرقُ وانتَثَرَتْ بين أيديهمُ
فوقَ مائدةٍ فارغه:
قِطْعَةً قِطْعَةً قِطْعَةً قِطْعَةً قِطْعَةً
ليس من بارقٍ في حجارتها
لا خطاب يجيء ولا وَهَمٌ
لا عوالمُ نائيةٌ أو صدى.

مَدَّ كلٌ يدا
ثم غادرَ يحمل قِطْعَةَ مجدٍ قديمٍ، يُمَنّونَ أنفسَهُمْ:
أن هذي الشظيَّةَ تكبُرُ ثانيةً
ثم تُصبحُ إيقونةً
ويعودُ الشعاعُ الذي ضاعَ في موعدٍ،
طالما انتظروا موعدا ...

بغـــداد